Received: 11/5/2022 Accepted: 12/6/2022 Published: 2022

دور المرجعية الدينية في تاريخ العراق المعاصر... ثورة العشرين نموذجا

الدكتور الشيخ لكحل
الجامعة غرداية - قسم التاريخ. الجزائر- دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
lakehal7272@gmail.com
+213 0667740011

مستخلص البحث:
يتناول الباحث في هذه الورقة البحثية إشكالية دور المرجعية الدينية في تاريخ العراق المعاصر، وقد اختار دورها في أحداث ثورة العشرين نموذجا لذلك. وقد توصل الباحث في نهاية هذه الدراسة إلى أن ثورة العشرين هي أول ثورة وطنية وحدت الشعب العراقي، وذلك بفضل مرجعيته الدينية التي قدمت أروع المواقف والتضحيات قبل الثورة وخلالها وبعدها.فمن مظاهر اللحمة الوطنية السنية والشيعية أنه كانت جموع المواطنين العراقيين تخرج بعد كل احتفالية يتقدمها السيد محمد الصدر أحد علماء الشيعة في الكاظمية والشيخ أحمد الرادود أحد علماء السنة في بغداد ليرمزا إلى الوحدة الوطنية الصادقة. وفي إحدى المظاهرات انتخب الأهالي لجنة مندوبين تتألف من خمسة عشر عضواً بارزا من الأوساط السنية والشيعية ليمثلوا الشعب أمام إدارة الاحتلال، ومن خلال لجنة المندوبين هذه واصلت الحركة الوطنية في بغداد والكاظمية معارضتها للاحتلال، عن طريق اقامة المظاهرات واستخدام المناشير التي تدعو إلى الاستقلال. وفي الاخير يمكن القول؛ أن ثورة العشرين ما كان لها لتنجح لولا اللُّحمة الوطنية التي كانت سائدة في أواسط الشعب العراقي، هذه اللّحمة التي حاول المستعمر البريطاني تفكيكها من خلال اذكاء النعرات العشائرية والطائفية ... إلا أنه فشل في مخططه بسبب الدور المحوري الذي اطلعت به المرجعية الدينية الشيعية والسنية.

الكلمات المفتاحية: المرجعية الدينية، السنة، الشيعة، العراق، ثورة العشرين.

المقدمة:

بعد الاخفاقات التي منيت بها الادارة العثمانية في تسيير شؤون العراق خلال القرن التاسع عشر، وما رافق ذلك من فساد إداري واضطراب اجتماعي، تطلع العراقيون مطلعَ القرن العشرين إلى الاستقلال عن العباءة العثمانية وتشكيل حكومة وطنية، وقد رأوا في السند البريطاني مطيةً لتحقيق هذا الهدف. بيدَ أن حلم الاستقلال لم يتحقق؛ إذ وجد العراقيون أنفسَهم قد سقطوا في وهَدِ الاحتلال الأوربي الصليبي، وهذا ما أجبرهم على القيام بثورة العشرين.

ولازالت ثورة العشرين، رغم مرور قرن من الزمان على وقوعها، تعتبر من أهم الأحداث التي عرفها العراق خلال التاريخ المعاصر، ذلك أنها شهدت انتفاضةَ الشعب العراقي ضد الاحتلال البريطاني، وتطلعَه إلى تشكيل حكومة وطنية. كما ميز هذه الثورة توحد الشعب العراقي خلف مرجعياته الدينية، هذه المرجعيات التي وضعت خلافاتها الفقهية والفكرية جانبا وحرّضت الشعب العراقي على الالتفاف حول ثورته. فما هي ثورة العشرين؟ وكيف كان دور المرجعية الدينية في أحداث هذه الثورة؟

أولا: ثورة العشرين

هي تلك الثورة التي قام بها الشعب العراقي ضد الهيمنة الاستعمارية بعد ان اكتشف نوايا بريطانيا الخبيثة في السيطرة على مقدرات البلد النفطية وجعله جزءا من ممتلكات التاج البريطاني، في حين كانت تدّعي بأنها جاءت لتخلص العراقيين من جور الأتراك. وقد أُطلق عليها اسم "العشرين" نسبة للسنة التي اندلعت فيها وهي سنة 1920.

احتلال العراق:

منذ اكتشاف النفط في عبادان مطلعَ القرن العشرين أضحى العراق يشكل أهمية اقتصادية لدى الدول الاستعمارية خاصة بريطانيا، وكان هذا من جملة الاسباب التي تذرعت بها بريطانيا عند احتلال البصرة. وقد دفع تزايد المصالح البريطانية في العراق السياسة البريطانية إلى اعتبار وادي الرافدين مجالا حيويا للنشاط السياسي والاقتصادي البريطاني، وأوضح اللورد كُرزون (George Nathaniel Curzon) أهمية العراق منذ عام 1892 بقوله: "بغداد تقع ضمنَ موانئ الخليج ويجب أن تدخل ضمنَ السيادة البريطانية التي لا تنازع."[1] وقد استغلت بريطانيا اندلاع الحرب العالمية الأولى وانحيازَ الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا من جهة، وشيوعَ التذمر والسخط في أوساط العراقيين من الإدارة العثمانية من جهة أخرى، لتتدخل عسكريا في العراق حين تقدمت قوة بريطانية واحتلت البصرة في 5 نوفمبر 1914م. كما تحركت الحملة الإنجليزية بقيادة الجنرال ديلامين (W. S delamain) بعد احتلال البصرة، وتقدمت نحو العمارة فاحتلتها في 3 جوان 1915م كما احتلت الناصرية في 25 جويلية من العام نفسه بعد معارك دامية. وزعم الإنجليز أنهم جاؤوا لتحرير العراق من ظلم الأتراك، وذلك من أجل كسب ود الشعب العراقي. وهكذا سيطر البريطانيون على منطقة جنوبي العراق ليضمنوا المحافظة على المصالح النفطية من جهة، والسيطرة التامة على الخليج العربي، من جهة أخرى. [2] تابعت القوات البريطانية زحفها في اتجاه بغداد حيث وقعت معركة بين الإنجليز والأتراك في الكوت عام 1916م، وتمت هزيمة الإنجليز هزيمة ساحقة حيث تكبدوا خسائر فادحة، غير أن الإنجليز لم يتنازلوا عن احتلال بغداد، فجهزوا حملة بقيادة الجنرال مود (Frederick Stanley Maude) تمكنت من هزيمة القوات التركية العثمانية، واحتلت بغداد في 11 مارس 1917م بعد انسحاب القوات التركية منها. وتابع الجيش البريطاني زحفه نحو الجبهات الأخرى بقيادة الجنرال وليام مارشال (William Raine Marshall) الذي خلف مود، فاحتل سامراء ثم الرمادي وأخيرًا احتل الموصل في 7 نوفمبر 1918م واكتمل احتلال بقية العراق. وادّعى الإنجليز بعد احتلال بغداد أنهم دخلوها محررين وليسوا أعداءً منتصرين.[3] كان الاحتلال البريطاني تنفيذًا لجزء من اتفاقية سايكس- بيكو التي اقتسم بها الإنجليز والفرنسيون مناطق النفوذ والسيطرة الاستعمارية في الشام والعراق، ولكن العراقيين كانوا يأملون في تحقيق الاستقلال نظرًا لوعود بريطانيا للشريف حسين من جهة خاصة بعد نجاح الثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين، وكذلك وعود بريطانيا لهم بالاستقلال والحرية من جهة أخرى، مما دفعهم لعدم مساعدة الأتراك خلال الحرب..

وكان السير بيرسي كوكس (Percy Cox) المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي رئيسًا لإدارة الاحتلال، وقد أصبح فيما بعد المندوب السامي المسؤول عن الإدارة المدنية، فوضع أنظمة وقوانين مستمدة من الهند، وفرض الضرائب..

وتحوّل شعور الشعب العراقي من الدهشة والاستغراب والمفاجأة من هذه الأعمال إلى نقمة ثورية، وحين سمع العراقيون بإقامة حكومة عربية في دمشق، وبالمبادئ الأربعة عشر للرئيس الأمريكي ولسون، وبخاصة مبدأ حق تقرير المصير للشعوب، بادروا إلى تكوين جمعيات تطالب بالاستقلال، مثل حرس الاستقلال وجمعية العهد، اللتين تأسستا عام 1919م. وأرسل بعض الضباط العراقيين مذكرةً إلى الحكومة البريطانية تطلب إقامة حكومة وطنية في العراق. ولكن الرد البريطاني كان مخيبًا للآمال، كما أن مقررات مؤتمر سان ريمو(Sanremo) عام 1920م أوضحت نوايا الحلفاء الاستعمارية والتي تقرر بموجبها فرض الانتداب البريطاني على العراق. الأمرُ الذي أثار استياء الشعب العراقي وغضبه، مما دفعه للكفاح من أجل التخلص من الاحتلال ونيل الاستقلال.[4]

أسباب الثورة:

كان لحركة عام 1920 م أسباب خارجية وداخلية، فمن بين الأسباب الخارجية نذكر:

-تصريحات الحلفاء العديدة قبل الاحتلال وبعد سقوط بغداد حول منح العراقيين استقلالا؛ من ذلك المنشور الذي أذيع باسم الجنرال مود قائد القوات البريطانية التي احتلت بغداد يوم 11 مارس 1917.[5]

-كان لاشتراك عدد كبير من الضباط العراقيين بالثورة العربية الكبرى في الحجاز، أو الذين هربوا من الجيوش العثمانية، وساهموا في إنشاء الدولة العربية في سورية، أثرٌ كبير في دفع العراقيين إلى مقاومة الاحتلال.

أما الأسباب الداخلية فتمثلت في العوامل الأتية:

-انتشار الروح القومية في العراق منذ أواخر العهد العثماني.

- سوء إدارة الاحتلال. وفشلها في تحقيق أي من المشاريع الكبرى التي كانت قادرة على تنفيذها لتحقيق الازدهار الاقتصادي والرفاه الاجتماعي.

- قيام سلطة الاحتلال بتعيين كبار الموظفين من الضباط البريطانيين، وصغارهم من الهنود لإدارة مرافق الدولة، وحرمت سكان البلاد منها،

-تجاهل البريطانيين الشعورَ الوطني، والعادات العربية، والتقاليدَ المحلية المتأصلة في نفوس العراقيين، ما أخل بكرامة المواطن العراقي. وكذلك خلق الشقاق والتنافس بين رؤساء العشائر بمحاباة بعضهم على حساب بعض الآخر.

- .إجبار بعض أصحاب الدور على إخلائها بحجة استخدامها لصالح الانتداب.[6]

أحداث الثورة:

لم يوافق العراقيون على فرض الانتداب البريطاني عليهم وشعروا بخيبة أمل كبيرة بعد أن ظلوا ينتظرون الحكمَ الوطنيَّ مدةً طويلة، وبعد اتصالات جرت بينهم وبين سلطة الانتداب لحل القضية سلميا، رفضت بريطانيا جميع المطالب الشعبية، إذ أن خروجَها من العراق ومنحَ البلاد استقلالا يعني لها خسارة قد لا تعوض، لذلك استهانت بقوة الشعب، وبدلاً من أن تلجا إلى الحكمة في حل القضية، زادت من بطشها وبذلك أضحت الانتفاضة الشعبية أمرا محتوما. وقد حصل الحادث الذي أدى إلى قيام الانتفاضة في 30 جوان 1920 عندما هاجم فريق الظوالم، وأفراداً من عشيرة بني جحيم سراي الحكومة في الرميثة، وأطلقوا سراح شيخهم شعلان أبو الجون الذي اعتقله الميجر ديلي (Major Dialy) حاكم الديوانية البريطاني كي لا ينضم إلى الوفد المفاوض. لم يرض أعوان الشيخ عن العمل فأطلقوا النار على دار الحاكم، وقاموا بتعطيل سكة حديد جنوبي الرميثة، كما قطع فريق من العراقيين سكة حديد شمالي بغداد. دفعت هذه الأحداث الحكومة البريطانية إلى الإعلان عن وجود حالة حرب مع العراقيين، وبخاصة بعد تعرض عدد كبير من الضباط البريطانيين إلى الاغتيال، وانتشار الانتفاضات في كل المناطق العراقية كثورة عامة قوامها عرب سنة وشيعة، وأكراد وتركمان.[7]

امتدت الثورة بسرعة الى مناطق العراق المختلفة، فأعلنت الثورة في النجف يوم 2 جويلية ورفع علم الثورة العربية على سراي الحكومة، وأسرع الناس الى الجهاد في سبيل الله والوطن، وتمكن الثوار في الرميثة من قطع السكة الحديد، ومقاتلة القوات البريطانية التي زحفت نحو الرميثة وحاصروها حصارا شديدا على الرغم من قصف الطائرات البريطانية، مما اضطر هذه القوات الى التراجع نحو الحلة. وفي الشامية استطاع الثوار السيطرة على المدينة، وأُجبرت الحامية البريطانية على الانسحاب إلى الديوانية، وقد شجعت هذه الانتصارات مناطق العراق الأخرى على إعلان التمرد، وتمكن الثوار من احراز نصر كبير في موقعة الرارنجية (الرستمية) عندما هاجموا قوة بريطانية كبيرة مجهزة

بالأسلحة الحديثة يوم 24 جويلية، فاضطرت القوات البريطانية الى التقهقر نحو الحلة بعد أن فقدت 318 جنديا ، وغنم الثوار 40 رشاشا ومدفعية واحدة.[8] وتوالت محاصرة الحاميات البريطانية في معظم مناطق الفرات الأوسط، وسيطر الثوار على بعض المدن، وألحقوا خسائر كبيرة بالقوات البريطانية في تلك المناطق. [9] وكان للفلوجة دور ريادي في هذه الثورة، وتمكن أهلها من قتل قائد القوات البريطانية ليتشمان (Gerard Evelyn Leachman)، وقد مارس فيها الإنجليز من أعمال القتل والتدمير والسلب ما أثبته الشاعر العراقي (معروف الرصافي) في قصيدة، منها قوله:

هو خطب أبكى العراقيين والشام وركن البنية المحجوجهْ
حلها جيشكم يريد انتقاماً وهو مغر بالساكنين عُلوجهْ.[10]

وقد خفّت حدة المعارك العسكرية، بعد فترة قصيرة من وصول بيرسي كوكس (Percy Cox)، واعتبرت الثورة منتهيةً بعد المفاوضات التي أجرتها بريطانيا مع الثوار في الرميثة؛ آخر معاقل الثورة، وتوقيعها الاتفاق معهم في 20 نوفمبر 1920 تعهدت فيه بأن تكون للعراق حكومةٌ عربية مستقلة، وعدم مطالبة الثوار بالخسائر التي لحقت بالحكومة البريطانية، مع الاعفاء من الضرائب لسنة الثورة، على أن يتعهدوا بحفظ الامن والنظام في مناطقهم، وأن يأخذوا على عاتقهم حماية السكة الحديدية المارة في مناطقهم، وأن يسلموا الحكومة البريطانية الفين واربعمائة بندقية.[11]

وقد دامت الثورة حوالي خمسة أشهر تكبدت القوات البريطانية خلالها الكثيرَ من الخسائر المادية والبشرية، وقد قدّر الجنرال هالدن (James Aylmer Lowthorpe Haldane) الخسائر البشرية ب2299 اصابة، بينما خسر الثوار العراقيون حوالي ثمانية آلاف وأربعمائة وخمسين بين شهيد وجريح.[12] أما الخسائر المادية فقدرت بين العشرين إلى الأربعين مليونا من الجنيهات الاسترلينية، مما دفع الرأي العام البريطاني والصحافة البريطانية الى المطالبة بالانسحاب من العراق، فاضطرت الى تعديل الانتداب عن طريق المعاهدة والوصول بالعراق الى مرحلة الدخول في عصبة الامم بأسرع مما كانت حكومة بريطانيا قد ازمعت أن تفعله في بادئ الأمر عندما اخذت مهمة الانتداب على عاتقها.[13] وقد تمخض عن هذه الثورة عدة نتائج نذكر من بينها:

- أظهرت الثورة وحدة صف الفئات الشعبية في مواجهة الاحتلال على الرغم من المحاولات البريطانية تغذية كل ما من شأنه إحداث التفرقة.
- ظهور الروح القومية بشكل جلي، فكان زعماء الحركة في كل ناحية يعبرون عن شعورهم العربي . كشفت الحركة عن نضج سياسي ورقي اجتماعي.
- صُدم الرأي العام البريطاني من مدى الهزائم في العراق، وبدأت التساؤلات عن السبب في الوجود البريطاني كله هناك، وأدرك البريطانيون أن إستراتيجيتهم في العراق قد فشلت، ولا بد من إحداث تغيير.
. وجهت الثورة ضربة موجعة للمحتلين البريطانيين وأفشلت خططهم بربط العراق بعجلة الحكومة البريطانية، وأجبرتهم على تقديم بعض التنازلات تحت ضغط الثورة.[14]
- أجبرت الثورة الإنكليز على تخفيف قبضتهم على العراق من خلال تنصيب فيصل الأول ابن الحسين بن علي ملكاً عليه عام 1921م، ومن ثم رحيلهم عن العراق لينال استقلاله عام 1932م. [15]

ثالثا: دور المرجعيات الدينية في الثورة

المرجعيات الدينية في العراق:

يعتبر العراق من أبرز الدول العربية المتعددة الطوائف والمرجعيات، ويغلب على ساكنيه الطائفتان السنية والشيعية. وقد عرفت البلاد ظهور مذهب آل البيت منذ القرن الأول الهجري، بل إن هذا المذهب قد نشأ وترعرع وتطور في بلاد الرافدين كما تذهب الروايات التاريخية.

وقد حاول الولاةُ والخلفاءُ تحجيم نشاط دعاة مذهب آل البيت خلال عهد الأمويين والعهد الأول للعباسيين، لكنه ما لبث ان عاد بقوة بعد سيطرة البويهيين على بغداد، خلال القرن الرابع الهجري، حتى امتد وتمكن خلال الاحتلال الصفوي. وأضحت مدن جنوب العراق كالنجف الأشرف وكربلاء؛ خلال تاريخ العراق الحديث، مدنا مقدسة لدى العراقيين الشيعة، لما احتوته من مزارات ومراقد لأئمة آل البيت وحوزات علمية للمراجع الدينية. بينما ظل أهل السنة هم الغالبين على مدن وسط وشمال الفرات كبغداد والموصل والرمادي وكركوك وغيرها. لكن كانت هناك مدن مختلطة شيعية وسنية.

وإذا أخذنا مثالا على تلك المدن؛ نذكر أن مدينة سامراء تميزت عن غيرها من المدن العراقية بصفة أنها قد اجتمع فيها عاملان متناقضان: الأول هو ان سامراء مزار شيعي مقدس يقصدها آلاف الزوار من الشيعة في كل عام، والثاني أن سكان سامراء وسدنة الأماكن المقدسة فيها من أهل السنة. والواقع أن اجتماع هذين العاملين المتناقضين في سامراء كان يؤدي إلى وقوع الكثير من الصدامات الطائفية فيها، وطالما كان زوار الشيعة ولا سيما الايرانيين منهم يلقَون الأذى والمضايقات من قبل سكان البلدة والعشائر المحيطة بها، وهذا ما أدى الى توتر العلاقات بين ايران والعراق في بعض الأحيان.

وقد حاولت المراجع الدينية من كلتا الطائفتين ضمها إلى صف المذهب، ويذكر علي الوردي أنه من الأسباب التي دفعت المرجع الشيعي المرزا الشيرازي إلى الهجرة نحو سامراء هو انه كان يريد تحويلها الى بلدة شيعية لكي ينقذ الزوار من المضايقات التي كانوا يتعرضون لها. ورغم انه لم يعلن هذا على الناس إلا أن الكثير من القرائن تشير الى ذلك.[16] فبعد استقراره في سامراء، قام الشيرازي بفتح مدرسة شيعية تتسع لمائتين من الطلاب؛ وهي ما زالت قائمة تعرف باسم "مدرسة المرزا"، كما بنى حسينية، وحماما للرجال وآخر للنساء، وسوقا كبيرة، ودورا كثيرة، وهذا ما أدى إلى هجرة الشيعة الى سامراء من شتى الاتجاهات؛ حتى اصبحت مدينة عامرة بعد أن لم تكن قبل ذلك سوى قرية صغيرة بيوتها من طين. وكاد السكان القدامى أن يذوبوا في خضم هذا النمو السريع. وأخذ الشيرازي يبذل لهم العطاء لتأليف قلوبهم، فأحبه الكثير منهم. وصار الشيعة يقيمون طقوس العزاء الحسيني على عاداتهم في كل بلدة يحلون فيها، وهي الطقوس كانت في تلك الأيام تؤثر في النفوس عميقا خاصة في أوساط العامة وابناء العشائر، فوقع أهل سامراء تحت تأثيرها وشرعوا هم أنفسهم يخرجون في مواكب العزاء تقليدا للشيعة.[17] إن هذا التحول الهام الذي حدث في سامراء أدى إلى ظهور ردة فعل شديدة بين علماء السنة في بغداد فتحفزوا للعمل على انقاذ سامراء من التشيع، وكان أشدهم حماسا في ذلك الشيخ محمد سعيد النقشبندي فقابل والي بغداد الحاج حسن باشا وباحثه في الأمر، وأبرق هذا الأخير الى السلطان عبد الحميد يخبره بالخطر الذي يهدد سامراء. سافر الشيخ محمد سعيد النقشبندي إلى سامراء مُخولاً بفتح مدرسة سنية في المدينة، وخرج أهل سامراء لاستقباله واحتفوا به احتفاء منقطع النظير حتى قيل في حينه "كأنه ظهر المهدي عليهم بقدومه". واستأجر النقشبندي دارا وجعلها مدرسة له، وأخذ يشتغل بالتدريس والوعظ والإرشاد.[18] وغالب الظن أن سامراء لم تكن المدينة الوحيدة محلَّ صراع بين المرجعيتين، لكن المؤكد أن هذا الصراع كان موجودا وظاهرا للعيان أواخرَ العهد العثماني، أي قبيل خضوع البلد للاحتلال الإنجليزي.

تعاون المراجع الدينية خلال الثورة:

لقد ظن الاحتلال البريطاني أنه بمقدوره السيطرة على بلاد الرافدين لمدة طويلة، وذلك لما وجده من اختلاف مذهبي وطائفي بين ساكنيه، هذا الاختلاف الذي لم يألُ جهدا في إذكائه في إطار السياسة الاستعمارية " فرق تسد"، بيد أنه لم يكن يتوقع أن يتحد العراقيون في سبيل مقاومة هذا المحتل، وقد تمظهر ذلك في تعاون المرجعيتين السنية والشيعية لإنجاح ثورة العشرين.

فمنذ بداية الاحتلال ظهر تعاون وثيق بين الأفندية والملائية[19]، وكان لهذا التعاون أثره الكبير في التقارب الطائفي الذي ظهر بوضوح في أيام الثورة. فقد كان من الظواهر الاجتماعية المألوفة في عهد الاحتلال حضور الأفندية الى مجالس الملائية، وتقبيل أيديهم والجلوس بين أيديهم باحترام وخشوع. إن الافندية أدركوا ما للملائية من نفوذ قوي وكلمة مسموعة في أوساط العامة، وشعروا بأنهم يجب أن يتعاونوا مع الملائية لكي تكون دعايتهم المناوئة للاحتلال أشد تأثيرا وأوسع نطاقا.[20]

وكانت الزعامة الدينية لدى الشيعة في بداية الاحتلال البريطاني للسيد محمد كاظم اليزدي فلما توفي يوم 19 أفريل 1919، أكبر الشيعة وفاته، ورأى السنيون أن يشاطروا إخوانهم في مصابهم، فأقاموا للفقيد الحفلات التأبينية الكبرى، وأنشدوا المراثي العظمى، فكانت هذه الوفاة سبباً مباشراً لتقارب المسلمين في العراق، وعاملا كبيراً من عوامل استحكام الصلات الحسنة بينهم. وقد استغل السياسيون هذه القوة الكامنة وراحوا بدعمونها ويستعينون بها في القضايا الوطنية الكبرى. ولما انتقلت الزعامة الدينية ـ بعد وفاة السيد اليزدي إلى الشيخ محمد تقي الحائري الشهير بالشيرازي، وسع مفكرو الطائفتين أساليب الاستعانة بنفوذه الديني الواسع لتحقيق مقاصدهم السياسية، فكان الشيخ يؤيد الصلات الاخوية بين طوائف المسلمين بكل قواه، ويحث على التآلف، والتآزر، ليقف الجميع صفاً واحداً في وجه الأجنبي.[21]

ويذكر الشيخ علوان: أن ثورة العشرين كانت لوجه الدين والوطن والمبدأ العربي... ومستقلة لا يسيطر عليها أحد وإنما كانت تحت ارشاد وزعامة رجال الدين.[22]

ويتحدث علي البازركان - وهو من أفندية بغداد - عن صلاته الوثيقة بعلماء الكاظمية وكثرة زياراته لهم، فيقول : « والحقيقة أنني في تلك الايام كنت كثيرَ التردد على قصبة الكاظمية لزيارة بعض الاخوان أمثال السيد محمد مهدي الصدر نجل حجة الاسلام السيد اسماعيل الصدر وبقية اخوانه الحجة الشيخ عبد الحسين آل ياسين وأنجاله الفضلاء وغيرهم من العلماء والفضلاء. وذات يوم قال لي السيد محمد مهدي الصدر - اثر كلمة لي في مجلسهم أحثهم فيها على المطالبة بإنهاء الاحتلال وتأسيس حكومة وطنية - أن الشيخ محمد رضا نجل المرزا الشيرازي جاء من سامراء أمس إلى الكاظمية للاطلاع على الحركة الوطنية في بغداد والكاظمية وقد زاره بعض الاخوان، وكاشفَهم برغبته في الاتصال بزعماء الحركة ودعاتها والقائمين بها والمشرفين على نشاطها، فقلت للسيد الصدر: سأحاول زيارته غدا. وفي اليوم الثاني استصحبت معي السيد باقر والسيد احمد سركشك وذهبنا إلى الشيخ محمد رضا نجل آية الله الشيرازي لزيارته ولتزويده بالمعلومات التي جاء من أجلها لمعرفة نواياه، فعلمت منه أنه جاء للاطلاع على أعمال البغداديين الوطنية؛ وهي الاجتماعات واللقاءات والخطب المطالبة بالاستقلال، وأنه سيعود إلى سامراء ليخبر والده بالأمر. وبعد عشرة أيام قدِم إلى الكرخ السيد محمد على بحر العلوم فذهبت لزيارته وقد زودته بمعلومات كافية حول نشاط أهل بغداد." [23] كان الأفندية يلتقطون الأخبار السياسية من الصحف الوطنية والدولية، أو من بعض المصادر الأخرى التي هم أقدر على الاتصال بها، فيوصلون تلك الأخبار إلى الملائية، ويقوم الملائية من جانبهم بنشرها في أوساط الجماهير لغرض إثارتهم على الإنكليز. وضمن التحرك المنظم بادر أعلام النجف إلى تشكيل حزب سياسي أطلق عليه "الحزب النجفي السري"؛ حيث اتخذ اعضاؤه المؤمنون من غرفة معزولة في مدرسة الملا كاظم الخراساني في محلة الحويش في النجف الأشرف مقراً لهم. وقد ضمَّ هذا الحزب الكثيرَ من علماء الدين الكبار والشخصيات الاجتماعية المعروفة وزعماء العشائر، توزعوا على ست مجاميع حسب طبيعة العمل؛ منهم: الشيخ عبد الكريم الجزائري، الشيخ محمد جواد الجزائري، الشيخ محمد باقر الشبيبي، الشيخ محمد رضا الشبيبي، السيد محمد سعيد كمال الدين، الشيخ حسين الحلي، الشيخ عبد الحسين مطر، السيد أحمد الصافي، الشيخ محمد علي القسام، الحاج محسن شلاش، السيد هادي زوين، السيد

علوان الخرسان، الشيخ محمد أبو شبع، السيد علوان الياسري، السيد كاظم العوادي، الحاج عبد الواحد سكر، الشيخ غثيث الحرجان، الشيخ شعلان أبو الجون. وقد حظي هذا الحزب الذي يضم العلماء في النجف الأشرف ورؤساء العشائر والشخصيات الاجتماعية في النجف ومنطقة الفرات الأوسط بتأييد مراجع الدين؛ حتى أن التنسيق كان قوياً حول الظروف المتاحة وأساليب التحرك، ولاسيما مع الإمام محمد تقي الشيرازي الذي انتقل من سامراء إلى كربلاء في نهاية 1918م، آخذاً بعين الاعتبار ضرورةَ الاقامة بالقرب من الفرات الأوسط. فقد وجد الإمام الشيرازي في هذا الحزب ذراعاً فاعلة تستطيع أن تدفع الامة بالاتجاه الذي تهدف له. [24] على أثر وفاة الشيرازي في 17 أوت 1920 استقر الرأي في النجف على مبايعة الشيخ فتح الله الأصفهاني ليكون خليفته في الاشراف على الثورة فعقد اجتماع كبير في صحن النجف، حتى امتلأ الصحن بالناس، وجيء بالأصفهاني محمولا لكبر سنه فأُصعد على المنبر، ووقف إلى جانبه الشيخ جواد الجواهري والسيد محمد علي بحر العلوم والسيد محمد رضا الماني لينقلوا كلامه إلى الجماهير المحتشدة، فكان الجواهري ينقل كلامه الى بحر العلوم، وهذا بدوره ينقله إلى الصافي، وكان الصافي يعلن الكلام للناس لأنه كان جهوري الصوت. كان مما قاله الأصفهاني في خطابه: أن الشيرازي انتقل إلى رحمة الله، ولكن فتواه بقتال المشركين باقية، فجاهدوا واجتهدوا في حفظ وطنكم العزيز وأخذ استقلالكم. ثم قال الاصفهاني: أنه لعجزه عن الذهاب إلى ساحة القتال فقد أناب عنه السيد أبا الحسن الاصفهاني ليقوم مقامه فيها، وعند هذا تسلم السيد أبو الحسن الراية وتوجه إلى المرقد العلوي لأداء الزيارة ثم غادر النجف عصرا قاصدا جبهة الوند، وكان في معيته السيد مصطفى الكاشاني وابنه السيد أبو القاسم والسيد محمد رضا الصافي.[25] ويروي عبد الرزاق الحسني أن الشيخ فتح الله الاصفهاني كان قد افتتح كلامه في صحن النجف بالكلمة المعروفة التي نطق بها أبو بكر عند وفاة النبي ﷺ، وهي: أيها الناس من كان يعبد منكم محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت. ويعلق علي الوردي على هذه الحادثة بقوله: "سألت بعض المعلمين من أهل النجف عن صحة هذه الرواية، فاستغربوا منها واستبعدوا وقوعَها، وكان رأيهم أن ليس من المعقول أن يتمثل مجتهد شيعي في صحن النجف بكلمة منسوبة إلى أبي بكر الصديق. ولكني أرى أن ذلك أمر محتمل الوقوع في تلك الايام، وهو دليل على قوة التقارب الطائفي الذي كان سائدا في الناس آنذاك."[26]

وفي الفلوجة، أقدم الشيخ ضاري، أحد شيوخ الفلوجة، على قطع رأس القائد الإنكليزي لجمن، وهو ما أحدث هزة في لندن وخرجت على إثر ذلك مظاهرات شعبية عفوية في بغداد وهي تردد أهزوجة: ضاري هز لندن وابكاها (أي وأبكاها).[27] أما في ديالى فقد كان للشيخ سعيد النقشبندي دور بارز في إثارة عشائر البوهيازع والجبور والعزة في إعلان الثورة سنة 1920م، وفي بغداد كان كبار قادة ثورة العشرين هم الأفندية وعلماء الدين من العرب السنة وخصوصا من محلة خفر إلياس، وفي الرمادي كان لاتحاد ثوار البوكمال وراوة وعانة بقيادة الضباط السنة دور في قيادة الثورة في المناطق المذكورة.[28] وتأكيداً للموقف الوطني واللحمة الوطنية السنية والشيعية، كانت جموع المواطنين تخرج بعد كل احتفالية يتقدمها السيد محمد الصدر أحد علماء الشيعة في الكاظمية والشيخ أحمد الرادود أحد علماء السنة في بغداد ليرمزا إلى الوحدة الوطنية الصادقة. وفي أحدى المظاهرات انتخب الأهالي لجنة مندوبين تتألف من خمسة عشر عضواً بارزا من الأوساط السنية والشيعية ليمثلوا الشعب أمام إدارة الاحتلال، ومن خلال لجنة المندوبين هذه واصلت الحركة الوطنية في بغداد والكاظمية معارضتها للاحتلال، عن طريق اقامة المظاهرات واستخدام المناشير التي تدعو إلى الاستقلال.[29]

وبالتالي يكون رجال الدين قد أدوا دورا كبيرا في هذه الحركة عبر إثارتهم للشعور الوطني ضد سلطة الاحتلال، وزرعهم بذورَ المقاومة في نفوس السكان، ومما زاد في قوة وخطورة ثورة العشرين على الاحتلال البريطاني أنها اتخذت طابعا دينيا.[30]

وهكذا أدرك البريطانيون الدورَ الكبيرَ الذي تلعبه المراجع الدينية في تحريك الجماهير في مواجهة قوات الاحتلال، والانصياع المذهل الذي تبديه العشائر العراقية لعلمائها، وما تمثله هذه العشائر من ثقل بشري قادر على التأثير في مجرى الأحداث في العراق. وقد استوعب علماء الحوزة العلمية ومن خلفهم العراقيون –كما يقول السيد علي نجم الجنابي في إحدى مقالاته المنشورة- أن مواجهة الاحتلال لابد أن تكون بموجب خطة منظمة للقيام بعمل ثوري يستهدف إخراج القوات البريطانية من العراق، وإقامة حكومة عربية خاضعة لدستور تشريعي مقيد.[31]

ومن كل ما تقدم يمكننا القول:

أن ثورة العشرين هي من أهم الثورات قام بها العراقيون خلال التاريخ المعاصر.

وأن رجال الدين قد أدوا دورا كبيرا في هذه الحركة عبر إثارتهم للشعور الوطني ضد سلطة الاحتلال، وزرعهم بذورَ المقاومة في نفوس العراقيين. وأن هذه الثورة ما كان لها لتنجح لولا اللُّحمة الوطنية التي كانت سائدة في أواسط الشعب العراقي، هذه اللّحمة التي حاول المستعمر البريطاني تفكيكها من خلال اذكاء النعرات العشائرية والطائفية ... إلا أنه فشل في مخططه بسبب الدور المحوري الذي اطلعت به المرجعية الدينية الشيعية والسنية.

المصادر والمراجع:

بن صالح الصغير يوسف: فلوجة العز في زمن الذل/في/ مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، ع207.
جعفر حميدي وإبراهيم أحمد: تاريخ العراق المعاصر، دار ومكتبة عدنان، بغداد 2015.
الحسني السيد عبد الرزاق: الثورة العراقية الكبرى، دار الرافدين للطباعة والنشر، بيروت 2013.
الرواشدي عبد الرحمان وآخرون: العرب السنة في العراق، ط1، مركز البحوث والدراسات البيان، الرياض ب ت.
الساعدي عبد الرضا: المرجعية الدينية ودورها الكبير في ثورة العشرين/في/ شبكة النبأ المعلوماتية، https://annabaa.org/arabic/authorsarticles/4927، 2020/12/11.
سعدي عبد الله ايناس: تاريخ العراق الحديث 1258-1918، دار عدنان، شارع المتنبي، بغداد 2014.
طقوش محمد سهيل: تاريخ العراق الحديث والمعاصر، دار النفائس، بيروت 2016.
عبد الرزاق الهلالي: تاريخ التعليم في العراق خلال العهد العثماني، شركة الطبع والنشر الأهلية، بغداد 1959.
مجموعة من المؤلفين: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض 1999.
المشهداني عارف: العراق.. هل يشهد «ثورة عشرين» جديدة؟!/في/ مجلة البيان، المنتدى الإسلامي.
الوردي علي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج3، المكتبة الوطنية، بغداد 1972.

الهوامش والإحالات:

(1) – ايناس سعدي عبد الله: تاريخ العراق الحديث 1258-1918، دار عدنان، شارع المتنبي، بغداد 2014، ص 581.

(2) – محمد سهيل طقوش: تاريخ العراق الحديث والمعاصر، دار النفائس، بيروت 2016، ص 114-115.

(3) – جعفر حميدي وإبراهيم أحمد: تاريخ العراق المعاصر، دار ومكتبة عدنان، بغداد 2015، ص 13-15.

(4) – مجموعة من المؤلفين: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض 1999، ج15، ص22.
(5) – السيد عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، دار الرافدين للطباعة والنشر، بيروت 2013، ص 16.
(6) – محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 126-127.
(7) – نفسه، ص 138.
(8) – جعفر حميدي وإبراهيم أحمد: المرجع السابق، ص 24.
(9) – محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 138.
(10) – يوسف بن صالح الصغير: فلوجة العز في زمن الذل/في/ مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، ع207، ص 19.
(11) – جعفر حميدي وإبراهيم أحمد: المرجع السابق ، ص 25.
(12) – محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 138.
(13) – جعفر حميدي وإبراهيم أحمد: المرجع السابق ، ص 26.
(14) – محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 139.
(15) – عارف المشهداني: العراق.. هل يشهد «ثورة عشرين» جديدة؟!/في/ مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، ع191، ص 76.
(16) - علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، المكتبة الوطنية، بغداد 1972، ج3، ص 89.
(17) - نفسه، ج3، ص 90.
(18) - نفسه، ج3، ص 91.
(19) – الأفندية هم الموظفون والضباط الذين كانوا خلال العهد العثماني ويغلب عليهم السنة، أما الملائية فهم علماء الحوزات العلمية وكان يغلب عليهم الشيعة، وكلمة ملائية مشتقة من الملا وهو معلم القرأن وتجمع على ملائية وملالي، أنظر:
عبد الرزاق الهلالي: تاريخ التعليم في العراق خلال العهد العثماني، شركة الطبع والنشر الأهلية، بغداد ، ص55.
(20) - علي الوردي: المرجع السابق، ج5، ص 39.
(21) – السيد عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص 58.
(22) – نفسه، ص 237.
(23) - على الوردي: المرجع السابق، ج5، ص 40.
(24)- عبد الرضا الساعدي: المرجعية الدينية ودورها الكبير في ثورة العشرين/في/ شبكة النبأ المعلوماتية، https://annabaa.org/arabic/authorsarticles/4927، 2020/12/11.
(25)- علي الوردي: المرجع السابق، ج6، ص 309.
(26)- نفسه، ج6، ص 310.
(27) – عارف المشهداني: العراق.. هل يشهد «ثورة عشرين» جديدة؟!/في/ مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، ع191، ص 76.
(28)- عبد الرحمان الرواشدي وآخرون: العرب السنة في العراق، ط1، مركز البحوث والدراسات البيان، الرياض ب ت، ص 82.

(29) عبد الرضا الساعدي: المرجعية الدينية ودورها الكبير في ثورة العشرين/في/ شبكة النبأ المعلوماتية، https://annabaa.org/arabic/authorsarticles/4927، 2020/12/11.
(30) – محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 127.
(31) عبد الرضا الساعدي: المرجعية الدينية ودورها الكبير في ثورة العشرين/في/ شبكة النبأ المعلوماتية، https://annabaa.org/arabic/authorsarticles/4927، 2020/12/11.

دور المرجعية الدينية في تاريخ العراق المعاصر... ثورة العشرين نموذجا

الدكتور الشيخ لكحل
الجامعة غرداية - قسم التاريخ. الجزائر- دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
lakehal7272@gmail.com
+213 0667740011

Abstract :

In this research paper, the researcher deals with the problematic of the religious authority's role in the contemporary history of Iraq, and has chosen her role in the events of the Twentieth Revolution as a model for that.

At the end of this study, the researcher concluded that the Twentieth Revolution is the first national revolution that united the Iraqi people through his religious authority whose presented the most wonderful positions and sacrifices before, during and after the revolution.Among the phenomenons of Sunni and Shiite patriotism, the masses of citizens came out after each celebration by Sayyid Muhammad al-Sadr, one of the Kadhimiya scholars, and Sheikh Ahmad Al-Radoud, one of the Sunni scholars in Baghdad, to symbolize sincere national unity. In one of the manifestations, the people elected representatives from fifteen members from the Sunni and Shiite circles to represent the people to the occupation authority, and through this delegated committee, the National Movement in Baghdad and Kadhimiya continued his opposition to the occupation, organizing protests and using leaflets indicating independence.Finally, we can be said that the Twentieth Revolution would not have succeeded without the national cohesion that prevailed among the Iraqi people, this cohesion that the British colonialist tried to dismantle by encouraging tribal and sectarian differences ... However, he failed in his plan because the central role of the Shiite and Sunni religious authority.

Keywords: Religious authority, Sunnis, Shiites, Iraq, Twentieth Revolution.